حَسَنْ نَجْمِي

على مَضَض

I

عِنْدمَا جَاءَنِي فِي اللَّيْلِ. قَالَ لِي: انْزِل إلى دَمِكَ. فِي الطَّرِيقِ إلى المَتَاهَةِ نَسِيتُ عُمْرِي. قُلْتُ: هَذَا الحُزْنُ وَحِيد «مِثْلِي مُنْشَغِلٌ بِالتَّفَاصِيلِ. يَحْدُثُ لِلصَّفْحَةِ أَنْ تَرْفُضَ الكَلِمَاتِ. يَحْدُثُ لِلطُّرُقَاتِ أَنْ تَنْزَعِجَ من خَطْوِي. لكنَّنِي مَشَيْتُ. لِمَاذَا أُثْقِلُ وَجِهِي بِعَيْنَينِ لاَ تَنَامَانِ؟ لِمَاذَا مَشَيْتُ؟

لَوْ أَنَّ الفَرَاغَ وَحْدَهُ نَامَ قُرْبِي .
لكِنَّهَا الذكْرَى تَمْلأُ كُلَّ شَيْءٍ.

انْتَبَهْتُ. قُلْتُ: هَذَا ظِلِّي.

خَشِيتُ أَنْ أَنْسَاهُ وَحِيداً في المَقْعَدِ الخَلْفِي. كَمْ خَبِرْتُهُ مُنْدَهِشاً مِثْلَ عَرَقٍ فِي المَسَارِبِ! دَائِماً قُرْبِي مَرْكُوناً فِي المَسَاءِ. دَائِماً مَعِي فِي الهَزِيمَةِ. أَنَا لاَ أَعْرِفُ لَهُ عُنْوَاناً غَيْرَ صَفْحَةِ أَيَّامِي. لاَ أَعْرِفُ لَهُ طَرِيقاً إِلاَّ مَتَاهَتِي. تَعَالَ قُلْ لِي مَا الَّذِي تَبَقَّى لَدَيْكَ لِتَقْتُلَهُ؟! أَنْتَ مُتَّ مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَمُوتَهُ. قُمِ اصْحُ مِثْلَ عَطَبِ الكَهْرُبَاءِ - يَشْتَعِلُ ثُمَّ يَنْطَفِئُ كُلُّ شَيْءٍ.

حَقّاً.

هَذَا الخَلاَءُ حَزِينٌ.

وَالآنَ تَدَبَّرْ لِسَاناً آخَرَ. دَعْ لِسَانَ الاِسْمَنْتِ فِي صُنْدُوقِ المُهْمَلاَتِ. انْبُتْ فِي وَجْهِكَ شَفَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ لِلكَلِمَاتِ العَذْرَاء. لاَ قِنَاعَ يَحْجُبُ وَجْهَكَ فِي أَقَاصِي الريحِ. تَمَهَّلْ.. قَلِيلٌ مِنَ اللَّيْلِ يَكْفِي لِهَذَا النَّشِيدِ. تَمَهَّلْ.. أَكُلُّ هَذَا العَمَى لِتَرَى الوَرْدَةَ وَاضِحَةً؟ إِنِّي أَرَى غُرْبَتَكَ يَافِعَةً. أَرَى مَطَرَ رُوحِكَ غَرِيباً - هَلْ أَنْتَ بِلاَ سَمَاءٍ كَيْ تَهْبِطَ - بِلاَ أَرْضٍ كَيْ تَصِلَ يَا مَطَرَ المَتَاهَةِ؟!

ضَالعٌ في اليَتْمِ .
كُلُّ الوُجُوهِ حَوْلَكَ مُوْشُومَةٌ بِالجِنَايَاتِ.

II

اطْوِ الأَرْضَ وَلَوْ أَرْهَقَكَ طَيُّ النَّظَرِ. دُونَمَا طُبُولٍ يُمْكِنُ رَدْمُ كُلِّ هَذَا الزَّعِيقِ. جُسُومٌ كَمَا لَوْ مِنْ غُبَارٍ. لَحْم «غَامِضٌ وَحْدَهُ مَطَرُ الرُّوحِ يَغْسِلُهُ. جُسُومٌ ظَلِيلَةٌ. وُرُود «مَنْسِيَّاتٌ كَالأَرَامِلِ. أَرْضٌ تَخْجَلُ مِنْ رِيحِهَا. وُجُوه «تَخْتَرِقُ فِي شَمْسِ النِّسْيَانِ. مَنْ يُنْقِذُ لَيْلاً مِنْ نَهَارِهِ؟ سُعَارُ النَّهَارَاتِ أَبَدِيٌّ. كَيْفَ نُحِبُّ زَمَناً دُونَ لَيْلٍ! دَعْ مَوْجَ هَذَا اللَّيْلِ حُرّاً. لاَ حَاجَةَ لِسَاحِلٍ. قُمِ ارْكَبْ بُرَاقاً - لاَ بُدَّ من ضَوْءٍ صَاعِدٍ.

كَأَنَّ الفَتَى بِلاَ نَظَر .
لاَ يَنْتَبِهُ لِفُصُولِ وَجْهِهِ.

.....

لَيْسَ فِيهِ رَبِيعٌ.

يَا لَلْوَحْشَةِ الأُخْرَى!

لَيْلَةٌ نِصْفُ مَيِّتَةٍ .

يَرْعَاهَا قَمَرٌ شَاحِبٌ.

هَذَا البَغْلُ مَعْتُوهٌ. يَهْزَأُ بِالصُّوَى فِي طَرِيقِهِ.

وَلَيْسَ لَكَ ظِلٌّ. لَكِنَّكَ مُشْفِقٌ وَتَقُولُ: إِنَّهُ يَتْبَعُنِي. وَلَيْسَتِ الأَرْضُ إِلاَّ مَا تَرَى. وَوَطَنُكَ أَخْرَسُ وَلَيْسَتِ اللُّغَةُ إِلاَّ مَا ابْتَكَرْتَهُ مِنْ دَمِكَ. وَاهٍ - كَثِيرٌ مِنَ الحُبِّ فِي هَذِهِ السَّنَابِلِ - لاَ تُوقِظْهُ هَشَاشَةُ الكَلِمَاتِ. وَقَلْبُكَ مَحْجُوبٌ - وَيَحْجُبُ دَمَهُ. وَحُزْنُكَ

سَاخِنٌ - وَتَتَعَلَّقُ المَوْجَاتُ البَارِدَةُ بَقَصِيدِكَ - وهَذَا الوَطْوَاطُ فِي الطِّينِ - وَيَنْسَى أَصْلَهُ. وَهَذَا الشَّاعِرُ يَنْتَعِلُ قَصِيدَةً كَمَا لَوْ يَنْتَعِلُ لُغَةً مَهْزُومَةً. وَهَذِهِ الأُمَّةُ خَلْفَكَ بِلاَ نَعْيٍ: لِتَمُوتَ لاَ يُسْعِفُهَا نُبْلُ مَوْتٍ. لِتَحْيَا - حَيَاتُهَا حَبْلُ غَسِيلٍ. سَلاَماً.. تِلْكَ اللَّيَاقَاتِ العَرِيقَةِ!

أَلاَ فَلْتَصُنْ لِسَانَكَ -

لاَ حَاجَةَ لِدُودٍ زَائِدٍ.

III

وَقُلْتُ: يَا دَلِيلِي، لاَ بُدَّ مِنْ غَيْمٍ - والأَرْضُ تَحْتَ رَحْمَةِ جَيْبٍ. أَتَقَدَّمُ أَيْنَ؟ والوَرَاءُ سَهْوٌ - وَالأَمَامُ دَسِيسَةٌ. تَعَالَ نَشْرَبُ حَلِيباً مَرْشُوشاً بِالحِنْطَةِ. لِهَذَا المَوْجِ المُعْتِمِ أَصَابِعُ تَلُفُّ السَّنَابِلَ. احْذَرِ الكَلْبَ!

كَمْ أُرِيدُ أَنْ أَصْرُخَ الآنَ!

تَبًّا لِلْبَحَّةِ.

الصَّوْتُ مَجْرُوحٌ حَيْثُ تَزْدَحِمُ الكَلِمَاتُ.

وَقُلْتُ: يَا دَلِيلِي، لَمْ أَعْرِفْ دَماً كَهَذَا الدَّمِ. بِلاَ نَضَارَةٍ - دَمٌ مُرْتَجَلٌ فِي هَذَا الصَّقْعِ. والأَلْسِنَةُ بَلْهَاءُ وَلَهَا حِكْرُ الكَلاَمِ. وَهَذَا الصَّخْرُ صَامِتٌ وَلَهُ مَا يَقُولُهُ. وَقُلْتُ لَهُ: أُخْرُجْ من الأَشْيَاءِ وأَخْرِجْهَا مِنْ فَمِكَ. هُوَ العَالَمُ حَيٌّ فَأَيْنَ اللِّسَانُ دُونَ رَائِحَةِ مَوْتٍ.

دَلِيلٌ أَضَاعَ الدَّلاَّلَةَ .

دَلاَّلَةٌ وَلاَ دَلِيلٌ!

وَآهٍ يَا دَلِيلِي .

لِي يَأْسٌ أَبْهَى مِنْ غِبْطَةِ البَرْلُمَانْ!

أَكُلَّمَا جِئْتُ إِلَى هَذَا التُّرَابِ اسْتَعَادَ اليَأْسُ لُغَتَهُ؟!

هِيَ ذِي خُطْوَةٌ ثَالِثَةٌ فِي تُرَابِ الفَجِيعَةِ وَفِي أَضْغَاثِ أَحْلاَمِ. وَتَمْشِي - وَتَمْشِي الدَّسِيسَةُ فِي رِكَابِكَ. لَوْ تَرَجَّلْتَ - كُنْتَ وَصَلْتَ إِلَى خَطِّ النَّارِ وانْتَشَيْتَ وَلَوْ بِهَزِيمَةٍ. هَلْ هِيَ حَرْبٌ لَكَ أَمْ حَرْبٌ عَلَيْكَ؟ هَا. هَا. هَا. دَعْنَا نُسْنِدُ تَيْهَنا بِمَسَاءٍ حَكِيمٍ. دَعْنَا نَتَفَرَّغُ لاِرَقِ اللَّيْلَةِ الأُولَى. هُنَا الأَرْضُ حُبْلَى بِالقَمَرِ والرَّحِمُ عَتَمَةٌ. مَنْ يَسْمَعُ هَذَا الحَبْلَ الطَّوِيلَ مِنْ صُرَاخٍ - وَلاَ نَصْرُخُ إِلاَّ فِي كَابُوسٍ؟

يَا.. يَا أَخِي .

كَمْ هَذَا الصَّخَبُ جَمِيلٌ!

لَكِنَّنِي أَحْتَاجُ إِلَى صَمْتِي.

هذا الشهر

مريم النور

رواية

تأليف

رجاء نعمة

دار الآداب